ذكريات مع سميرة عزام

بقلم جمال أحمد

اخي شفيق (*)

لك ولاحباء سميرة ، الحب كله ، والولاء والود . بعين اساي على صديقتي الراحلة ، ان اشركك واصدقاءها ، ما تعملون من اجلها هذا المساء ، وليس من عزمي ان اتحدث عن قصصها وما عربت من كتب ، فما اذكر ان شيئا من اعمالها ، يقترب حتى اقترابا من موهبتها الحقيقية : اشير الى شخصيتها . ما كانت روائية بطبعها ، وما كانت قصاصة مبدعة ، وما عانت الادب ملهاة ، كبعض بناتنا اليوم . موهبتها شخصيتها . لو كانت معنا هذا المساء ، لقالت لي ، « ما اقرب ما تقول للصدق والحق » ، وان كنت آخذ عليك الابانة والوضوح في بلاد تخافهما عن الراحلين أمس فحسب . يغفر حبي لها ، وايثاري اياها ، اني لم أفتن بالذي كتبت ، وان راعتني شخصيتها .

لن اتحدث عن سميرة الكاتبة التي احب القارؤون العرب في كل مكان ، لكني أريد لاقص حادثة بعينها في حياتها ، لعلها تعين الذين سيكتبون سيرتها يوما من الايام على استقراء عبرتها .

دعتني ذات مساء على الهاتف « ان تعال » ، فرحت ، وما كان في وسعي الا ان أروح على عجل . فقد كان في صوتها هدجة ما الفتها ، وفي حديثها ألوجيز عجز ما عرفته . وكانت ايام مشقة . القي في روع عبد الكريم ، ان كل عربي يريد به وبرجاله السوء ، واوحي اليه ان العروبيين ، لا يهدفون العراق ، بلد' رائدا جسورا اهله . لن تكتمل عروبة لا تباركها العراق . اوحي اليه ان ثروات العراق هي القصد ، ولقى كل هذا هوى في نفسه الطموحة ، فاهوى على الاخيار ، وعم الكثيرين الذعر والرعب . جاء هذا في خاطري وانا الف عمامتي في طريقي لسيارتي . وحسبت ان شيئا منزليا في طوقي ان اعينها عليه قد وقع . ودخلت صالونها الصغير ، فاذا هي وصديقتها الاثيرة نازك هناك ، صامتتان . نازك كانت أقرب بناتنا لنفسها ، وبين الاثنتين فجوة ، نازك تطيعها الكلمة ، كما لم تطع شاعرة او شاعرا عندنا في النهج الذي ابدعته وباسمها اقترن ، وسميرة تكدح ، تلهث ، تسهر وتخذلها الموهبة والقصد . هذه موهبة وقصد مبين ، وتلك كدح وقلق يتمتمان . ما ادري ما الذي جمع بين الروحين ، لعلها الصوفية والبصيرة في اعماق نازك ، والصوفية المنذرة نفسها في اعماق العزيزة الراحلة . شيء يشق على ادراكنا نحن الذين ناخذ الطيب جنب الخبيث على ايامنا السود هذه ، نعيش ازمتنا ، دقائق حوادثها كل يوم وساعة تكاد لا تدع لنا لحظة تأمل .

وقلت كلمات هازلة ، اريد لاحملهما على الحديث ، او احمل سميرة على الاقل ، واذكر جيدا هذا الذي قلت ، اردتني على المجيء لاخلص قليلا من الثقل الحياة التي اعيشها دبلوماسيا عربيا في بلد طيب أشركه بكل جارحة فيه ، قدره على ايامنا تلك ، وكان هزلي هذا بعض حق ، لان سميرة كانت تعودني من حين لحين ، تلح علي ان اخدم مواهبي ، لا سادتي ، كما كانت تعبر . تعدني اقرب لشؤون الفكر من شؤون السياسة ، تحثني على العيش مع من أحب واختار ، « بدر » و « جبرا » و « نازك » لا مع الذين تختارهم لي المهنة . تلوح في وجهي باصابعها الصغيرة ، تفرطها فرطا على كفها الصغير . اقول لك : الفكر اولى ، انظر من يعرف القيصر الذي كان يدير امر الروس على عهد دستويوفسكي ؟ واليزابت الاولى .. الا ترى ان مارلو وشكسبير اعاناها على قدر من الخلود ؟ واجادل انا ، ادفع عن نفسي ، لا انكر عليها الحق الذي تقول .

لكن كلماتي الهازلة لم تجد استجابة ، نازك مكانها ، لا تلين ، لا تقول . وسميرة مكانها كذلك حبيسة خجل عرفته في بناتنا نحن اهل السودان . وصمت ايضا انا ، فجاءت سميرة للنقطة ، قالت اسمع . واصغيت : لقد قرر « الزعيم الاوحد » ان أخرج من بغداد في اربع وعشرين ساعة ، مضت الان منها بضع ساعات ، واسهبت فيما بعد في حديث عن متاع دارها الذي جمعته عبر السنين في بغداد ، وكان بعضي يسمع ما تقول ، وبعضي الاخر يفكر في هذه التي اتخذت من بغداد موئلا ووطنا الى ان يكون لها موئل ووطن . واحبت أهله ، حتى لخفت عليها احزانها . كانت تتحدث عن الوقت الذي يقتضيه بيع متاعها ، او الاحتفاظ به في مكان ، حتى يتاح لنا ان نبعث لها به في بيروت . وسميرة ما عدت ان تكون امرأة كانت تتحدث عن الارائك والسجاد والبراد ، كانها قطع بشرية ، لها حياتها المستقلة . جانب ما رأيته فيها الا ليلتي تلك ، وما عرفت ما اقول لاسري عنها ، ودخل اديب ، زوجها الرجل النبيل ، وجلس مثلي يصغي ورأسه بين كفيه ، شأنه معها في الجانب المرئي من حياتهما معا . يكفيها مؤونة العيش الرفيه ، احسبه حتى يومي هذا ، ما عنى بالذي كتبت وقالت ، قدر ما عني بحراسة عقل يدرك انه معذب ، ممزق ، كقلبه . اخذ على نفسه ان يرعى واحدة، على النحو الذي يرعى العربي اية انثى تجيء طريقه . « اديب ايها العزيز » ان كنت في الجمع ، استمع ، لك علينا دين ، حياؤك الجم ، يحول دوني والتصدي له .

كنا معا في بغداد أيام الملكية ، وكانت لقاءاتنا غير قليلة ، أفيظها في الذي كانت تذيع كل صباح ، كلما قابلت بين الذي أعمل والذي ينبغي أن أعمل ، على النحو الذي قلت قبل قليل . أقول لها تتحدثين عن خدمة المواهب والساسة ، وتلغين في الذي هو أنكى . تذيعين كل صباح ، تعينين أداة أوقفت نفسها على تخريب ما بين العرب . تسعى لتباعد بين بغداد والقاهرة ، قاعدتي القوة العربية . تعينين القوى الخارجية ، التي تسهر بعين هذه الفرقة ، وتقول لي ، انها لا تذيع الا الذي تراه ينير الطريق ، عتمته تكاثفت من حمق بعضنا وجهل بعضنا الآخر . وكانت صادقة . تقص كل صباح حكاية ، او تقرأ قطعة ، يفتن صوتها الاخاذ ، ويسر ما تقول كثيرا من القلوب الحزينة ، وما كانت سميرة في حوجة للدنانير ، وان كفاها كل شيء يهمها ، كما قلت ، فليست لشيء اخر الليل تسهر .

لنعد لما كنا فيه من حديث خروجها من بغداد في أربع وعشرين ساعة . مضى الليل الا أقله ، وانصرفت أدير في ذهني هذه القصة الشاذة ـ وان كان الشذوذ هو القاعدة على أيامنا تلك ـ أفكر ايز أبدا علاجها ، وما أدري لم خيل الي أن واجبي يقتضي أن أفعل شيئا، ربما لاني كنت اعرف من اهل الحول والقوة أكثر مما يعرفون ، عملي يسوقني سوقا اليهم .

رحت للصديق الاثير محمد كبة مد الله في أيامه ـ فقد كان ثاني اثنين أجد في الجلوس اليهما طمأنينة واملا ، وكان عضو مجلس السيادة ، على عهد ذلك المجلس الاول ، فلقاني قلقا (خير خير) خشي أن يكون قد وقع بي سوء واطمأن على عيالي وحالي وقال بعد أن استمع لقصة سميرة ، « لا تسرف » ، في الاذاعة منافسات وعلى رأسها ضابط ساذج ، لا يريد شرا بأحد ويكره الشر ويعمل في نظام !

(*) المقصود هو الاستاذ شفيق الحوت مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت .

حول لاحد ان يقومه ، حبيس قوى اقنعت عبد الكريم انها لقت عنتا على العهد الملكي ، وجاء دورها لتذوق مريحات هذه الحياة الدنيا . للعراق دين عليهم ، ينبغي ان يؤديه ، ليرفهوا كما رفه المعذبوهم من قبل ، ويمتلكوا من البيوت والقصور والارض ما امتلك اولئك . ما كان جديدا علي هذا الذي قاله شيخنا الجليل . كنت اسمعه من فئة حسبتها أيام العهد الملكي ، صفوة تريد خير الناس ، لا الحزب او الطائفة . كنت التقي بهم في داري يحرسني مكاني في الدولة سفير بلد شقيق ، فيما كان يقول بعض اهل السلطة ، ولا يعنونه ، يتحرقون ليوقعوا بين الخرطوم والقاهرة ، وقلت للشيخ الكبير ذي الهمة قلت له هذا ، فما عجب ، فقد كان بعض الذين ساروا بالثورة غير سيرتها، احلافه ، والحق اقول انه وحده وسيلتي ، وقال وهو يقودني للباب ، في صوت حزين ـ فقد كانت احزانه التي انتهت باستقالته ، بدات تؤوده قال : « الصباح رباح » .

وفي الصباح دعيت لمكتب الزعيم ، فذهبت واثقا ان الشيخ قد هيا لي لقاء معه ، وكانت لقاءات الواحد معه عسيرة لا من ناحية المراسم ، فيما يتصل بي على الاقل . كانت عسيرة ، لانه كان يثرثر . تلقاني كعهدي به حفيا ، وكان ابدا معي كذلك ، يقص علي اقاصيص حبه للسودان واهله ، واعجابه بالسودان ، لانه يقف في وجه الطامحين، وما كانت ثرثرته لتحجب عني مرماه في ان يباعد بين بلدين ، احدهما درع الآخر ، عاشا ثلاثة آلاف سنة من التاريخ المكتوب اكثر الاحيان في صلة واثقة ، وبعضها في صلة متارجحة . وفرغ الزعيم الاوحد من هذه ، ومن الكهرباء التي تعم القرى والمدن ، وخططه لانقاذ فلسطين ، وما من هذه بسبيل . ووجدت فرجة في الحديث فذكرت له الامر الذي جئت من اجله ، وقلت كل الذي تستطيع ان تتخيله مما يمكن للواحد ان يقول ، فتحسر وتالم ، وقال انه يقدر خدمات سميرة للعراق ، ومكانها في دنيا الادب ، وحقوقها على الرجال كامراة ،وودعني لدى الباب ، كلي طمانينة ، وهرعت لمكتبي ، وعلى الهاتف دعوت سميرة ، احمل النبا . فجاءت على عجل لمكتبي تذكر هذه اليد وكلها بشر ، وتغالي وتسرف في الذي فعلت ، وكانت تجنح لهذا ، فيما كان يقول بعض أصحابنا آنذاك . يخال بعضهم ان الحديث اليها يقبض النفس ، فكله يدور حول مأساة فلسطين وما كانت كذلك في الحق . كانت تعيش فقدانها الاهل والدار في شجاعة امام الناس ، وقلبها مفطور . شاهدي على الذي اقول انها راحت فجيعة . أكاد أتخيل حوارا بين شقيها ، بعد عارنا الذي تردينا اليه في ستة أيامنا السود . شق يقول لها ، تعالي ، نروح ، فما بقي ما نحيا له اليوم وقد تهشم الامل ـ وليكن مؤقتا ـ تهشم الامل الذي كان يدفعنا للعيش . وشق يقول لها ابقي لتري ، وان كان بعد عمر ، عودة الاهل والدار ، واكتبي لعل بعض طموحك أن يتحقق . ويجادل شقها الايمن ، شقها الايسر ، اتبقى أم تروح ؟ واختارت ، والله اختارت أن تروح ، لا تعيش الهزيمة، وكان في روحها في قلبها أنا سنغلب ، لان الحق معنا ، والخير ، ومن يدري لعل القدرة .

ومن مكتبي أعلنت سميرة لصديقاتها ان شيئا سيحدث ، وانها لن تغادر بغداد على النحو الذي عرفوا اول الليل امس . وانصرفت ، وانصرفت للغداء اقص على أهلي في البيت قصتها ، على مائدة الطعام، وفرح كل من في الدار ، من اجل سميرة ، ورعتني عايدة الصغيرة ، معجبة بابيها الذي يجيء بالمعجزات ، فهذا هو الشطر الذي فهمته ، أو عنيت به من القصة ، ودق جرس الهاتف ، فاذا أديب في الجانب الآخر ، يقول ، جاءنا ضابط الان هذه الساعة وأبلغنا ـ واعددت نفسي لدقيقة النصر ـ وتابع أديب ، ابلغنا أن الزعيم قد مد اقامة سميرة ١٢ ساعة اخرى .

ماذا اريد ان اقول . ربما الذي قال مروان ، واوجز « لم تكن اقدار ايامها كريمة معها » .

الخرطوم

جمال أحمد

السفير

البابا

آخر رواية للكاتب الشهير

موريس ويست

رواية الحرب القذرة في فيتنام ، كما يرويها سفير اميركي عين في سايغون وشاهد في اول يوم وصل فيه انتحار راهب بوذي .. وهو يقص هنا قصة تلك المنطقة التي تمزقها الخلافات السياسية والدينية والعسكرية وتدخل الولايات المتحدة الاميركية في هذا كله . ويعيش هذا السفير مأساة ضميرية اذ يكون عليه ان يختار بين رجل يحترمه (هو الرئيس كونغ) وبين طغمة من الجنرالات المتآمرين الذين تدعمهم المخابرات السرية الاميركية .. انه الصراع بين الاخلاق والانتهازية السياسية ، ولكنه كذلك مأساة شخصية يخرج منها السفير مجروحا في ضميره بحيث يهجر مهنته الدبلوماسية ليلتمس الخلاص الروحي بالقرب من راهب ياباني ..

وقد نجح موريس ويست ، وهو مؤلف رواية « محامي الشيطان » الشهيرة ، في تصوير حرب الفيتنام والدور الذي تلعبه فئة من الشخصيات المختلفة الغامضة ، وفي التعبير عن نزعة انسانية رائعة جعلت هذه الرواية في طليعة الروايات المعاصرة .

صدر هذا الشهر